

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

بمناسبة ما يذكر أن ميلاد الإمام موسى بن جعفر (ع) كان في السابع من شهر صفر وأنه ولد في السنة الثامنة والعشرين بعد المئة يعني قبل تولي العباسيين للحكم بأربع سنوات ثم حينما توفي الإمام الصادق (ع) في سنة المئة والثامنة والأربعين تولى الإمامة في عهد المنصور الدوانيقي وعاصر عدة خلفاء من بعده، ثم توفي في السنة الثالثة والثمانين بعد المئة في عهد هارون

أريد أن أتحدث^١ قليلا عما يرتبط بحياة الإمام أبي الحسن موسى الكاظم (ع) والتي تؤثر إلى سبيله ودعوته (ع)، هنالك سمة بارزة في حياة الأئمة (ع) وفي حياة الأنبياء (ع) كذلك، تلك الظاهرة هي ظاهرة البلاء -ولا أقصد بظاهرة البلاء بمعنى البلاء الخارجي- الأنبياء كانوا مبتلين وكانوا يؤذون ويعانون وكذلك الأئمة (ع)، حتى الإمام الحجة (عج) حينما يظهر ويتولى الحكم لن يكون مرتاحا بل سيعاني كما عانى الأئمة (ع) من قبله، ويفترض أن المؤمن كذلك يعاني فالصراع الذي يعيشه مع الدنيا -التي تحاول أن تسيطر عليه بطرق مختلفة- يكون أشد من صراع الإنسان غير المؤمن، الآن حينما لا يشعر أغلب المتدينين بمعاناة فهذا نتيجة عدم اهتمامهم بمعرفة الدين، فهم يتصورون بأنه إذا كانت الحياة مستقرة ومريحة فهذا يعتبرونه خيرا ونعمة! بينما بوضوح في القرآن الكريم (أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا مُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ)^٢، والإنسان المؤمن الذي يعرف إمامة الأئمة (ع) يرى أن هذا بلاء ولا يعتمد منطق الإنسان الكافر الذي تصفه الآية الكريمة (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)^٣

ينقل عن أمير المؤمنين (ع) أنه حينما كان يدخل بيت المال ويريد أن يوزع الذهب أو الفضة كان يقول (يا صفراء يا بيضاء لا تغريني غري غيري)^٤، فأمر المؤمنين (ع) يعيش هذه المعاناة والصراع ويتعامل معها كبلاء شديد، لكن أغلب الناس لا يشعرون بهذا البلاء لأن نظرتهم للأمور مشوهة فهم ورثوا هذه المقاييس من مجتمعهم واعتبروها ديناً، وإلا فإن المؤمن الذي يعرف مقاييس الدين الحقيقية يبكي على وضعه ويطلب من الله أن ينجيه من هذه الحياة الحيوانية ومن إمامة هذا العالم التي تروج لهذه النظرة باتجاهاتها الضالة المختلفة

(١) تحدث السيد محمد علي الباقر (قدس الله نفسه الزكية) بهذا الحديث في ٨ صفر ١٤١٤ هـ وقد تطوع بعض الأشخاص بطباعته مع شيء من التصرف نتيجة تحويل الحديث من مسموع إلى مقروء وقد لا يخلو من أخطاء غير مقصودة

(٢) (المؤمنون: ٥٥-٥٦)

(٣) (الفجر: ١٥)

(٤) (أمالى الصدوق: ٣٥٧)

فالأئمة (ع) كانوا مبتلين وهذه سمة بارزة في حياتهم، وابتلاؤهم (ع) -وكذلك ابتلاء من يعرفهم ويتبعهم- يختلف عما يتصوره كثير من المتدينين أنه ابتلاء خارجي فقط كأن يصابوا بمرض أو أن مشاكلهم الدنيوية تزداد وإنما هو ابتلاء نتيجة إيمانهم (إنما المؤمن بمنزلة كفة الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه)^٥، فهذا النوع من الابتلاء بإمكان المؤمن أن يرفعه عن نفسه لكنه هو باختياره يتقبله ويريده، فمثلا كان بإمكان أمير المؤمنين (ع) أن يُعامل الناس معاملة بحيث يستقر له الأمر في الحكم، فقد كان يعرف كيف يعامل الناس لكن من أجل أن يسير الدين بمساره الصحيح لا يفعل ذلك فيبتلى ويعاني، يعني بإمكانه أن يغير طريقته فلا يبتلى بهذا النوع من البلاء، فالمؤمن كلما عرف الأئمة (ع) وعرف سبيلهم وطريقتهم زاد ابتلاؤه، من الضروري معرفة أن الأئمة (ع) هكذا كانوا، ولو كانوا (ع) ينسقون مع الأوضاع الموجودة لما واجهوا هذا البلاء

أكثر الناس يتصورون بأن الإمام موسى بن جعفر (ع) كانت له مشكلة مع هارون كشخص! لا، لم تكن مشكلته مع هارون فقط، بل كانت مشكلته (ع) مع الوضع القائم باسم الدين، فالإمام الحسين (ع) حينما لم يبايع يزيدا لم تكن المسألة مرتبطة بيزيد فقط وإنما الإمام (ع) كان يرفض الواقع الخارجي الذي أصبح يمثل الدين، فيرفضه ويرفض إمامته وأسس وأركانه واتجاهاته كدين، وكذلك الإمام الكاظم (ع) رفض هذا الوضع المتجسد في هارون والمتجسد في غيره من الخلفاء الذين سبقوه مثل المهدي والهادي ومنصور الدوانيقي، رفض هذا الوضع ولم يخضع له، فالأئمة (ع) ما كانوا يخرجون على الخلفاء خروجاً سافراً لكن رفضهم للوضع الديني القائم بكل أشكاله هو الذي كان يسبب لهم المشاكل، فلو كانوا (ع) يتنازلون كانوا يُكرمون ويعزّزون ولا يواجههم هذا البلاء، فهذا البلاء هو البلاء الذي يختاره المؤمن بنفسه لأنه ثمرة طبيعية للشجرة العقائدية التي هو يعيشها، هذه مسألة يجب أن ننتبه إليها

هذه سمة بارزة في حياة الأئمة (ع) لابد لنا أن نقيس أنفسنا عليها إذا أردنا أن نعرف بأننا مؤمنون ومتبعون لهم (ع)، كما قلت أنا لا أقصد كم نعاني من أمراض ومن أشياء أخرى يتعرض لها المؤمن والكافر على حد سواء، لأن هذا النوع من الابتلاء الخارجي لا يختاره الإنسان بنفسه وإنما يتعرض له أي إنسان ولا يستطيع أن يرفضه، بل أقصد بالبلاء: كم أنا أعاني من البلاء الذي حصل نتيجة إيماني وديني؟ يعني بإمكانني أن أتخلى عن هذا بأن أتنازل عن طريقة أئمتي (ع) ليزول عني هذا البلاء، فالإمام موسى بن جعفر (ع) كانت هذه السمة البارزة في حياته وعلى هذا الأساس كان يعاني^٦

(٥) الكافي (٢/٢٥٣)

(٦) بين السيد (قدس سره) هذه المسألة في كتاب (هكذا آمنت ٤) في فصل (مظلومون)

الذي كنت أريد أن أقوله هو أن الأئمة (ع) والأنبياء (ع) قبلهم كانوا يتحملون هذا النوع من البلاء فكانوا يصمدون ومعهم المؤمنين -ولو قلة- ييقون صامدين، مثلاً الحجاج بن يوسف وزيد ابن أبيه حينما كانوا يقتلون أناساً ويسموهم زنادقة، كثير من هؤلاء الذين قتلوهم كانوا مؤمنين، مثلاً الحجاج يقال أنه قتل قنبراً مولى أمير المؤمنين (ع)، وكان بإمكان قنبر أن يتبرأ من الإمام (ع) بلسانه لكنه حتى لو كان يتبرأ بلسانه كان يُقتل، لأن هؤلاء القتلة يعرفون أن قنبراً له وجهة ودعوة وهي عدم التبري من الإمام

الأئمة (ع) كانوا يتقون، شخص يقول: (سألت أبا الحسن (ع) عن القيام للولادة، فقال: قال أبو جعفر (ع): التقية من ديني ودين آبائي ولا إيمان لمن لا تقية له)^٧، الوقوف احتراماً للولادة حصل بعد وفاة رسول الله (ص) باسم الدين، وبالتدريج أصبحت هناك طبقة أناس فوق وأناس تحت، يعني هنالك أناس يجب أن يُعظموا وهنالك أناس يجب أن يبقوا تحتهم دائماً

(...ولا إيمان لمن لا تقية له) الآن لا أريد أن أشرح ماذا يعني الإيمان، وكيف أنه واقعاً الإنسان الذي لا يتقي لا إيمان له^٨، فالإنسان يستطيع أن يراجع نفسه فيجد أن من لا توجد في حياته معاناة وتقية تجاه دينه فهذا لا إيمان له، فالمؤمن بشكل طبيعي يشعر بأنه لا يستطيع أن يتكلم في أحيان كثيرة حتى مع صاحبه -إذا لم يكن صاحبه يسعى لمعرفة الدين- فلا يستطيع أن يتكلم معه عن دينه ومتبنياته ومقاييسه، لأنه إذا تكلم عنها سيُرفض ويُتهم، هذه هي التقية، من لا يكون هذا سبيله وهذه طريقته فهذا ليس متبعاً للأئمة (ع)، فالإنسان المؤمن بشكل طبيعي يعاني

الأئمة (ع) كانوا يعانون وكانوا يصبرون وصبرهم ركن أساسي ناتج عن دعوتهم وطريقتهم (ع)، هذا نستطيع أن نجربيه نحن، أنا متحدث في أوقات سابقة أن الإنسان حينما يلتجئ ويتجه إلى الله يجد أن الله كفاه، (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)^٩ ماذا يعني كفاه؟ لا أن الله تعالى يغيّر الواقع الخارجي المفروض على الإنسان، بل الإنسان في داخل نفسه هو يكبر على الأشياء وينمو، ينمو بحيث أن كثيراً من هذه الأمور الدنيوية التي كانت تؤثر عليه الآن لا تؤثر عليه، لكن معاناته في اتجاه مرضاة الله تزداد كلما زادت معرفته بدينه، مثلاً في السابق حينما كان يرى منكراً كان يتأذى، أما بعد أن نما وكلما ينمو يجد مثلاً أن الكفر يروج -بطرق مختلفة- والناس يسبرون خلفه بلا وعي، هذا لم يكن يفهمه في السابق الآن بدأ يفهمه ويتأذى ويعاني بسببه

(٧) الكافي (٢/٢١٩)

(٨) بين السيد (قدس سره) هذه المسألة في كتاب (هكذا آمنت ٤) في فصل (التقية)

(٩) (الزمر: ٣٦)

أكثر الناس يتصورون بأن معنى (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) أن الله تبارك وتعالى يزيل عن الإنسان العقوبات والمشاكل والبلاء والتأذيات عنه، يتصورون أن الله عز وجل يدفع عنه البلاء بهذا المعنى! هذا هو منطق أكثر الناس! في مقابل تعامل آخر وهو أن الإنسان حينما يذكر الله (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)^{١٠}، فالله تعالى يذكره وينميه ويقربه إليه فمقاييسه ونظرته للأمور والأشياء تتغير، نفترض إنسانا متدينا كان يتصور بأن هذه الأموال وهذه الراحة التي هو يتمتع بها ما دامت هي ليست محرمة فهي خير، والدنيا قد حيزت له وجمعت له، هذا كان مقياسه وهذه نظرته، بالتدريج حينما ينمو ويكبر على الأشياء فمقاييسه قطعاً تتغير، ويجد حقيقة الآية (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) الله يكفي عبده يعني بالتدريج يتحرر من هذه المقاييس الكافرة، هذه المسألة مجربة

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) أصحاب الدنيا يخوفونك بالذين من دون الله عز وجل (وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)، يُنقل (أن قبرا مولى أمير المؤمنين (ع) دخل على الحجاج بن يوسف فقال له: ما الذي كنت تلي من علي بن أبي طالب؟ فقال: كنت أوصيه، فقال له: ما كان يقول إذا فرغ من وضوئه؟ فقال: كان يتلو هذه الآية: "فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" فقال الحجاج: أظنه كان يتأولها علينا؟ قال: نعم، فقال: ما أنت صانع إذا ضربت علاوتك؟ قال: إذن أسعد وتشقى، فأمر به)^{١١}، قبر لم يخف من ذلك بل قال (إذن أسعد وتشقى)، هذا مقياس إنسان مؤمن كفاه الله، من أين تأتي هذه القوة وهذا الشموخ؟ كان عبدا لله فكفاه الله (وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)^{١٢}، يكفي أن الإنسان المؤمن يوكل الأمر إلى الله عز وجل، إلهي علمك بحالي يكفي، إلهي قدرتك تكفيني، أنا أعلم أنني بعينك هذا يكفي، ويعطيني قوة

(قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ) قبر (رض) لا يعتبر ذلك ضرا وما كان يعتبر موته في سبيل الله ضرا، بل يعتبر الخير هو ما يلاقيه الإنسان في الآخرة، والضر هو الذي يلاقيه الإنسان في الآخرة والعياذ بالله، عذاب الله هو الضر، البعد عن رحمة الله هو الضر، الخير هو أن يكون الإنسان قريبا من الله ومرضيا له تبارك وتعالى

(١٠) (الرعد: ٢٨)

(١١) بحار الأنوار (١٣٥/٤٢) نقلا عن رجال الكشي

(١٢) (الزمر: ٣٦-٣٧)

فإذن هذا الضر بيد الله تبارك وتعالى (إلهي إن رفعتني فمن ذا الذي يضعني، وإن وضعتني فمن ذا الذي يرفعني)^{١٣}، هذا هو منطق الإنسان المؤمن المتجسد في القرآن الكريم (إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ . قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)^{١٤}

إذن فالصبر على البلاء ناتج عن الحركة الإيمانية للإنسان، وإذا لا توجد معاناة ناتجة من هذا النوع من البلاء فإن يوجد خلل في حركته الدينية وهذا يجب أن نعرفه، فكلما كانت حركتك باتجاه معرفة الأئمة (ع) تشعر بشكل طبيعي بتضارب وتصادم مع المقاييس التي يتبناها الناس بتبع هذا العالم الضال، ولهذا يزداد شعورك بالمعاناة، مشاعرك تتغير، أحاسيسك تتغير، مقاييسك تتغير، وقضايا كثيرة تتغير في حياتك

وعلى هذا الأساس الإمام الكاظم (ع) كان سجيناً، وفي إحدى الليالي طلبه هارون ليؤتى به (ع)، وبعد أن خرج الإمام (ع) من هارون سأله أحدهم: (ما الذي قلت حتى كفيت أمر الرشيد؟ فقال: دعاء جدي علي بن أبي طالب كان إذا دعا به ما برز إلى عسكر إلا هزمه ولا إلى فارس إلا قهره، وهو دعاء كفاية البلاء) يتصور الناس بأن معنى كفاية البلاء هو بأنه أي شخص يدعو به فالمرض يزول أو الفقر يزول أو المشاكل تزول، بينما المسألة ليست بهذا الشكل، الإمام الكاظم (ع) في تلك الليلة أطلق سراحه لكن بعدئذ هارون ماذا فعل به؟ قتله، وكذلك جده الحسين (ع) قُتل، ألم يكن يدعو بمثل هذا الدعاء؟ ورسول الله (ص) أفضل منهم ضُرب على جبهته المباركة وأسقطت ثناياه، فكفاية البلاء يعني الإنسان إذا يدعو بهذا الدعاء ويعيش هذا الدعاء فهو في قرارة نفسه يكبر ويتغير بحيث أن هذه الأشياء لا تؤثر عليه

(... قلت: وما هو؟ قال: قلت "اللهم بك أساور وبك أحاول وبك أحاور وبك أصول وبك أنتصر، وبك أموت وبك أحيأ، أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم إنك خلقتني ورزقتني وستررتني وعن العباد بلطف ما خولتني أغيتني، وإذا هويت رددتني وإذا عثرت قومتي، وإذا مرضت شفيتني وإذا دعوت أجبتني، يا سيدي ارض عني فقد أرضيتني)^{١٥}، جَرَّبَ إذا تعرفت على طريقة أئمتك ومقاييسهم (ع) سترتبط نفسك بشكل طبيعي بالله تبارك وتعالى، فهنا الله تعالى ينميك ويكفيك كل شيء، فلنحاول أن نتأسى بالإمام الكاظم وبالأئمة (ع) ونعرف معاناتهم ونعيش تقيتهم لنكون معهم، والحمد لله رب العالمين

(١٣) بحار الأنوار (٢٦١/٨٤) نقلاً عن مصباح المتعبد

(١٤) (الزمر: ٣٨-٤٠)

(١٥) عيون أخبار الرضا (٧٦/٢)